السّيرةُ النّبويّة للبراعم

(٢٠)

مُفَاوَضَاتٌ وَ إِغْراءَاتٌ... وَلَـٰكِنْ!

الدكتور
محمد عمر الحاجي

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق.

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية ـ دمشق ـ حلبوني ـ جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ ـ هاتف: ٢٢٤٨٤٣٣ ـ فاكس: ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

« ... وَاللهِ يَا عَمِّ..!! »

وَخَافَ المُشْرِكُونَ مِنْ سُرْعَةِ انْتِشَارِ الإِسْلامِ بَيْنَ النَّاسِ ، فَتَشَاوَرُوا فِيمَا بَيْنَهُم ، ثُمَّ اتَّفَقُوا على إِرْسَالِ وَفْدٍ مِنْ كِبَارِ أَهْلِ قُرَيْشٍ إِلىٰ عَمِّ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَجْلِ التَّفَاوُض .

وَبِالْفِعْل ، أَرْسَلُوا وَفْداً إِلىٰ أَبِي طَالِبٍ ، وَقَالُوا لَهُ : يَا أَبَا طَالِبٍ! إِنَّ لَكَ سِنَّاً ، وَشَرَفاً ، وَمَنْزِلَةً فِينَا ، وَإِنَّا قَدْ اسْتَنْهَيْنَاكَ مِنْ ابْنِ أَخِيْكَ فَلَم تَنْهَهُ عَنَّا ، وَإِنَّا وَاللهِ لا نَصْبِرُ علىٰ هَذَا مِنْ

شَتْمِ آبَائِنا ، وَتَسْفِيْهِ أَحْلامِنَا ، وَعَيْبِ آلِهَتِنَا حَتَّىٰ تَكُفَّهُ عَنَّا ، أَوْ نُحَارِبَهُ ، ثُمَّ انْصَرَفُوا .

فَبَعَثَ أَبُو طَالِبٍ إلىٰ رَسُوْلِ اللهِ يَسْتَدْعِيْهِ ، فَلَمَّا جَاءَهُ ؛ قَالَ :

يَا بْنَ أَخِي! إِنَّ قَوْمَك قَدْ جَاؤونِي ، فَقَالُوا كَذَا ، وَكَذَا ، فَأَبْقِ عَلَيَّ ، وعلىٰ نَفْسِكَ ، وَلا تَحمِّلْنِي مِنَ الأَمْرِ مَالا أُطِيْقُ .

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : « يَا عَمِّ! وَاللهِ! لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ في يَمِيْنِي وَالقَمَرَ في يَسَارِي عَلَىٰ أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ ، مَا تَرَكْتُهُ حتَّىٰ يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ أَهْلِكَ دُوْنَهُ » .

ثُمَّ بَكىٰ ، وَمَشَىٰ ، فَنَادَاهُ عمُّهُ ، وَقَالَ لَهُ :

يَا بْنَ أَخِي! اذْهَبْ ، فَقُلْ مَا أَحْبَبْتَ ، فَوَاللهِ لا أُسْلِمُكَ لِشَيءٍ أَبَداً!

* * *

فَمَاذَا تُرِيْدُ يَا مُحَمَّدُ ؟!

وَذَاتَ لَيْلَةٍ اجْتَمَعَ صَنَادِيْدُ قُرَيْشٍ عِنْدَ الْكَعْبَةِ ، وَتَدَارَسُوا سُرْعَةَ انْتِشَارِ الإِسْلامِ بَيْنَ النَّاسِ ، ثُمَّ اتَّفَقُوا فِيْمَا بَيْنَهُم عَلَىٰ إِرْسَالِ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ إِلىٰ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ .

وَلمّا جَاءَ إِلَيْهِمْ ، وَجَلسَ مَعَهُمْ ، قَالَ أَحَدُهُم : يَا مُحَمَّدُ! إِنَّا قَدْ بَعَثْنَا إِلَيْكَ لِنُكَلِّمَكَ ، وَإِنَّا وَاللهِ مَا نَعْلَمُ رَجُلاً مِنَ الْعَرَبِ أَدْخَلَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِثْلَ مَا أَدْخَلْتَ عَلَىٰ قَوْمِكَ ، لَقَدْ شَتَمْتَ الآبَاءَ ، وَعِبْتَ الدِّيْنَ ، وَشَتَمْتَ الآلِهَةَ ، وَسفَّهْتَ الأَحْلامَ ، وَفَرَّقْتَ الجَمَاعَةَ ، فَمَا بَقِيَ

أَمْرٌ قَبِيْحٌ إلا قَدْ جِئْتَهُ فِيْمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ... .

فَإِنْ كُنْتَ إِنَّما جِئْتَ بِهـٰذَا الحَدِيثِ تَطْلبُ بِهِ مَالاً ، جمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوالِنَا حتَّىٰ تَكُوْنَ أَكْثَرَنَا مَالاً .

وَإِنْ كُنْتَ إِنَّما جِئْتَ بِهَذَا الحَدِيْثِ تَطْلُبُ بِهِ الشَّرَفَ فِيْنَا ، فَنَحْنُ نُسَوِّدُكَ عَلَيْنَا .

وَإِنْ كُنْتَ تُرِيْدُ بِهِ مُلْكاً مَلَّكْنَاكَ عَلَيْنَا .

وَإِنْ كَانَ هَذَا الَّذِي يَأْتِيكَ رَئِيّاً ـ أَيْ : نوعاً مِنْ أَنْواعِ السِّحْرِ ، وَالجِنِّ ـ فَرُبَّما كَانَ ذَلِكَ ؛ بَذَلْنَا لَكَ أَمْوَالَنَا في طَلَبِ الطِّبِّ لَكَ حتَّى نُبْرِئَكَ مِنْهُ ، أَوْ نُعْذَر فِيْكَ... ؟!

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ الله ﷺ : « مَا بِي مَا تَقُولُونَ ، مَا جِئْتُ بِمَا جِئْتُكُم بِهِ أَطْلُبُ

أَمْوَالَكُم ، وَلا الشَّرَفَ فِيْكُمْ ، وَلاَ المُلْكَ عَلَيْكُمْ ، وَلَـٰكِنَّ الله بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ رَسُولاً ، وَأَنْزَلَ عَلَيَّ كِتَاباً ، وَأَمَرَنِيْ أَنْ أَكُوْنَ لَكُمْ بَشِيْراً أَوْ نَذِيْرَاً ، فَبَلَّغْتُكُمْ رِسَالاتِ ربِّي ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ ، فَإِنْ تَقْبَلُوا مِنِّي مَا جِئْتُكُم بِهِ ، فَهُوَ حَظُّكُم في الـدُّنْيَـا وَالآخِـرَةِ ، وَإِنْ تَـرَدُّوهُ عَلَـيَّ أَصْبِـرْ لأمْرِ اللهِ ، حتَّىٰ يَحْكُمَ اللهُ بَيْنِيْ وَبَيْنَكُم » .

* * *

طَلَبَاتٌ تَعْجِيْزِيَّةٌ

وَلمَّا يَئِسُوا مِنْ ذَلِكَ كلِّهِ ؛ اقْتَرَحَ بَعْضُهُم أَنْ يَطْلُبوا مِنْ رَسُوْلِ الله ﷺ طَلَباتٍ تَعْجِيْزِيَّةً!

فَانْتَظَرُوهُ ﷺ حتَّىٰ دَخَل المَسْجِدَ الحَرَامَ وَطَافَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ ، ثُمَّ جَلَس ، فَجَاؤوا إِلَيْهِ ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ : إِنْ كُنْتَ يَا مُحَمَّدُ! نَبِيَّاً حقَّاً ، فَادْعُ رَبَّكَ أَنْ يَجْعَلَ لَنَا جَبلَ الصَّفَا ذَهَبَاً .

قَالَ : « وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ ؟! »

قَالُوا : لا!!

وَقَالَ آخَرُ : فَادْعُ رَبَّكَ أَنْ يُسَيِّرَ هَـٰذِهِ الجِبَـالَ ، وَيَبْعَـثَ مَـنْ مَضَـىٰ مِـنْ آبَـائِنَـا ، وَأَجْدَادِنَا ، وَيَفْجُرَ لَنَا الأَنْهَارَ ، وَيُسَخِّرَ لَنَا الرِّيحَ وَالبَحْرَ...!

وقال ثالثٌ : سَلْ رَبَّكَ يَا مُحَمَّد! أَنْ يَبْعَثَ مَعَكَ مَلَكاً يُصَدِّقُكَ بِمَا تَقُولُ ، وَسَلْهُ فَلْيَجْعَلْ لَكَ جِنَاناً ، وَقُصُوراً ، وَكُنُوزاً مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّةِ ، يُغْنِيْكَ بِهَا عَمَّا نَرَاك تَبْتَغي ، فإنك تَقُومُ بِالأَسْوَاقِ كَمَا نَقُومُ ، وَتَلْتَمِسُ المَعَاشَ كَمَا نَلْتَمِسُهُ!!

وَقَدْ ذَكَرَ القُرْآنُ الكَرِيْمُ نَمَاذِجَ مِنْ طَلَبَاتِ المُشْرِكِيْنَ التَّعْجِيْزِيَّةِ ؛ لِتَكُونَ دليلاً لِكُلِّ الـدُّعَـاةِ إِلـىٰ الله تَعَـالـىٰ وَعَلَـى مَـرِّ الأَيَّـامِ

والدُّهُوْر ، مِثَالُ ذَلِكَ قَولُه تَعَالى : ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًا ﴾ (١) .

* * *

(١) سورة الفرقان : ٧ـ١٠ .

المُقَاطَعَةُ والحِصَارُ!!

وانْتَقَلَ المُشْرِكُونَ إلىٰ وَسِيْلَةٍ جَدِيْدَةٍ للضَّغْطِ عَلَىٰ المُؤْمِنِيْنَ ، فَتَنَادَوا إلىٰ اجْتِماعٍ كَبِيْرٍ ، وَبَعْدَ مُنَاقَشَاتٍ وَتَداوُلاتٍ لِلآراءِ فِيْما بَيْنَهُم أَجْمَعُوا عَلَىٰ مُقَاطَعَةِ المُسْلِمِيْنَ وَمَنْ نَاصَرَهُمْ مِنْ بني هَاشِمٍ ، وَعَبْدِ المُطَّلِبِ .

وَكَانَتْ أَهَمَّ مَحاوِرِ المُقَاطَعَةِ ما يلي :

ألا يَتَعامَلُوا مَعَهُمْ في البَيْعِ وَالشِّرَاءِ وَالتِّجَارَةِ .

ـ ألا يَتَزَوَّجوا مِنهم ، وَلا يُزَوِّجُوهُمْ .

ـ أَنْ يُحَـافِظُـوا علـىٰ المُقَـاطَعَـةِ ، وَلا يَسْمَحُوا لأَحَدٍ بِنَقْضِها .

وَلِذَلِكَ عَمَدُوا إلى كِتَابَةِ تِلْكَ البُنُوْدِ عَلىٰ صَحِيْفَةٍ ، ثُمَّ تَعَاهَدُوا ، وَتَواثَقُوا علىٰ ذَلِكَ ، ثُمَّ علَّقوا تِلْكَ الصَّحِيْفَةِ علىٰ حَائِطِ الكَعْبَةِ .

... ولَجأ المُسْلِمُونَ ، وَبَنُو هَاشِمٍ ، وَبَنُو عَبْدِ المُطَّلب إلىٰ شِعْب أَبِي طَالِبٍ ، واشْتَدَّتِ المُضَـايَقَـاتُ ، وَطَـالَ الـزَّمَـنُ ، حَتَّـىٰ قَـارَبَ الحِصَارُ مُدَّة ثَلاث سُنَواتٍ ، حَيْثُ قُطِعتْ عَنْهمُ الأَقْوَاتُ ، وَالأَرْزَاقُ .

وَكَانَ صَنَادِيْدُ قُرَيْشٍ يَسِيْرُوْنَ لَيْلاً في أَزِقَّـةِ مَكَّـة ، لِمَنْـعِ أَيِّ أَحَـدٍ مِـنْ مُسَـاعَـدَةِ

المُسْلِمِيْنَ ، كَأَنْ يَجْلُبَ لَهُمُ الطَّعَامَ ، وَمَا إلىٰ هُنَالِكَ!!

مثالَ ذَلِكَ : أَنَّ عَدُوَّ الله أَبَا لَهَبٍ كَانَ إِذَا قَدِمَتْ قَافِلَةٌ تِجَارِيَّةٌ إلىٰ مَكَّةَ ، وَجَاءَ بَعْضُ المُسْلِمين لِيَشْتَرِيَ جُزْءاً مِنَ التِّجَارَةِ ، وَقَفَ أَبُو لَهَبٍ بالنَّاس ليقول : يَا مَعْشَر التُّجَّارِ! غَالُوا على أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ، حَتىٰ لا يُدْرِكوا مَعَكُمْ شَيْئاً ، فَقَدْ عَلِمْتُمْ مَالي وَوَفاءَ ذِمَّتي ، فَأَناَ ضَامِنٌ ألا خَسَارَةَ عَلَيْكُم .

فَيَزِيْدُونَ عَلَيْهِمْ في السِّلْعَةِ ، ما قِيْمَتُه أَضْعَافاً حتَّىٰ يَرْجِعَ إلى أَطْفَالِهِ ، وَهُمْ يَبْكُون مِنَ الجُوْعِ ، وَلَيْسَ في يَدَيْهِ شَيءٌ يُطْعِمهُم بِهِ!

وَيَغْدُو التُّجَّارُ علىٰ أَبي لَهَبٍ ، فَيُرْبِحُهُمْ

ممّا اشْتروَا مِنَ الطَّعامِ واللِّبَاسِ ، حَتَّىٰ جُهِدَ المُؤْمِنُونَ ، وَمَنَ مَعَهُمْ جُوْعاً ، وعُرياً .

لَـٰكِنْ يَشَاءُ الله سُبْحَانَهُ أَنْ تأتِيَ دُوْدَةٌ عَلَىٰ الصَّحِيْفَةِ ، فَتَأْكُلَ غَالِبِيَّتهَا إلا مَا وَرِدَ فيها مِنْ أَسْمَاءِ الله تَعَالىٰ .

عِنْدَهَا أَيْقَنَ المُشْرِكُونَ عَدَمَ جَدْوَىٰ تِلْكَ المُقَـاطَعَـةِ ، فَنَقَضُـوا الصَّحِيْفَـةَ وانْتَهَـتِ المُقَاطَعَةُ...

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنِ

* * *